الفصل الثالث
خَلْقُ الإنسان فى نصوص القرآن

إنّ القرآن الكريم - وهو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامى - قد تناول قصّة خَلْق الإنسان، إبتداءاً من خلق جد البشرية آدم عليه السلام، وهو أول البشر على الإطلاق، مروراً بمن خُلِقَ بعده من البشر، وصولاً إلى محمد عليه الصلاة والسّلام وأمته الكريمة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وإلى أن تكف الشمس والقمر عن الدوران، فألقى ظلالاً من نور ينير ظلام قلوب النّاس.

وفيما يلى من بحثنا سننعم فى هذا الفصل إن شاء الله بدراسة بعض تلك النصوص الكريمة، والتّمعن فيها حتى تتضح الصورة، ويزهق الحق الباطل، فأمّا الزبد فيذهب هباءاً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض.

1- خلق آدم عليه السّلام

تبدأ قصة خلق آدم عليه السّلام، أو واقعة خلق الإنسان الأول أبى البشر، بمحاورة بين الله تعالى وملائكته، ومن هنا تبدأ أول قصّة البشريّة وخلق الإنسان. تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان وخلقه خَلْقا مباشِراً ومتقصداً، لا وجودَ للصدفة العشوائية ولا للتطور من البهيميّة إلى البشريّة، كما أنه ليس طفرة من طفرات الطبيعة، واحتفالاً بمولد الإنسان، وتعظيماً لقدرة الخالق المبدع الذى صوره، فقد أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لأول البشر، وقد سجدوا جميعاً إلا إبليس لم يكن من الساجدين.

ومن هنا يرى بعض الفقهاء، أنّ الإنسان ليس أفضل من كل الموجودات فقط، بل هو أفضل من الملائكة أيضاً. (1) إذ هو متميز عنهم فى الخَلق، فأمرهم بالطاعة والخضوع له حين أمرهم بالسجود له.

لقد استخلف الله الإنسان فى الأرض، وحتى يتحقق له هذا الإستخلاف فلا بُدّ له من أن يُمَكّنَ من استعمال الوسائل الماديّة التى تحقق له هذا الأمر، فقد سُخِرَت له الموجودات الكونية جميعها، وَهُيِأت له الأرض وَذُلِلَت لتكون طوع تصرف الإنسان: يزرعها لتنتج له ما يأكل، ويبنى عليها بيت سكنه، ويسير فى شِعابها وتلالها لمعاشِه ومباشرة أعماله، وّسُخِرَ له البَحْرَ: يركبه بالفلك والسُّفن والقوارب، ومنه يأكل طعامه، كما سُخّرت النباتات والأنعام له ولمعاشه.

ولولا تمكين الله تعالى للإنسان، واعطاؤه السّيطرة بتسخير كل تلك الموجودات له، لما استطاع العيش فى هذه الحَياة الدنيا، وبالرغم من كل

---

(1) النبهانى - الشيخ تقى الدين، التفكير، صفحة (5). - سابق - سيد سابق، العقائد الإسلامية، صفحة (111). - القرطبى - محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، صفحة (294).

هذه النِّعَم التى مَنَّ الله عليه بها - وهى كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصى - فإنّا نراهُ قليلاً ما يكون لله المُنعم الرازق المتفضل حامداً أو شاكراً، بل كثيراً ما نراه ضالاً شاطاً، كافراً بأنعم الله، جاحِداً فضله، [1] متبعاً خطوات الشيطان وجنده من دعاة الماديّة والوثنية والإلحادية والعصبية القبلية والقومية، كافراً بأنعم الله طوراً ومُشركاً به أطواراً، عاصياً أوامره مُسْتَحِلاً حرماته، متمرداً على كل النواميس والسُّنن التى سنها لهم الخالق المنعم المدبر.

يُعلمنا القرآن الكريم أنّ قصة خَلق البشرية قد بدأت بآدم عليه السَّلام، وَسَبَقَ ذلك مُحاوَرَةً بين الله تعالى وبين ملائكته، مُخْبِراً إياهم بأنهُ سيستخلفُ فى الأرضِ خَليفَة وهو الإنسان متمثلاً بادئ الأمر بآدم، وأنه سيمكن لهم فى الأرض بإعطائهم السُّلطان عليها.

تعجب الملائكة ووجلت قلوبهم، لقد رأى الملائكة فى أنفسهم أنهم أحق بخلافة الأرض من ذلك المخلوق المُنْتَظَر، إذ هم يسبحون بحمد الله ويقدسونه ولا يعصونه ما أمرهم، فلماذا يستخلف فيها من إذا تمكن فيها عصاه وأفسد فيها وبطش وسفك الدماء؟ فأجابهم العالِم العليم أنه يعلم ما لا يعلمون.

وهنا يعرض القرآن الكريم تكريم آدم الإنسان، فهو علاوة على استخلافة فى الأرض، قد أكرمه الله بالعقل والإدراك والتفكير، وفضَّله على الملائكة بِالعِلم، فقد علمه الله تعالى أسماء الموجودات جميعاً، ولمّا سأل الملائكة أجابوا:{**سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلا ما عَلَمْتَنا**}[2] فالله تعالى وحده هو

---

(1) حتى بلغ الكفر والصفاقة والوقاحة فيه أن تبجح الصليبى " ريجان " الرئيس السابق للولايات المتحدة، على ما تناقلت وسائل الأعلام، بعد الحرب الصليبية التى شنوها على العراق، بالادعاء بأنهم هم الذين يتحكمون بالقدر!!!

(2) البقرة: (32).

عالِم كل شىء، ذو الحكمة والعِلم، وليس لأحد كان أن يعلَم إلا ما علمه الله.

عندها طلب من آدم أن ينبئهم الأسماء، فلما طلب منه ذلك أخبرهم آدم بجميع الأسماء، وذلك ما يُظْهِرُ فضل آدم عليهم بزيادة علمه عنهم، وهنا يذكرهم الله أنه يعلَم ما لا يعلمون، وأنّ لـه حكمة أرادها فى خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض، فالله تعالى عليم بكل الخفايا والأسرار وبواطن الأمور، عليم بما يُظهرون بالقول والفعل، وبما قد يكتمونه فى أنفسهم.

إنَّ تعليم آدم الأسماء لا يقتصر على المسميات نفسها، بل هو تَعليمٌ وَتَثْقيفٌ عام بكل المخلوقات والموجودات وكيفيّة الإستفادة منها، وَتَعْليمٌ بِصِفات الأشْياء وَخَواصِها وطرق الإستفادة منها حيث هى مسخرة لـه، فهو عِلْمٌ عام شامِلٌ يحوى الأسماء وصفاتها. (1) فى ذلك يقول العلامة تقى الدين النبهاني: وأمّا قوله تعالى{**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**}(2) فإنّ المراد منه مسميات الأشياء لا اللغات، أى علمه حقائق الأشياء وخواصها، أى أعطاه المعلومات التى يستعملها للحكم على الأشياء)(3)

وهنا لا بد لنا من معرفة أنّ الإنسان يختلف عن غيره من المخلوقات بالعقل أى القدرة على التفكير، والتفكير حكم على ماهية شئ أو حكم على واقع، وحتى يتم هذا التفكير بصورة تعطى الحكم الصادق الصحيح لَزم أن يستكمل هذا التفكير الشروط اللازمة لـه، فعملية التفكير تجرى بنقل الواقع المحسوس إلى الدِّماغ بواسطة إحدى الحواس مع ضرورة وجود معلومات سابقة عند الإنسان المُفَكر تفسر ذلك الواقع، فإذا إنعدمت إحدى تلك الأساسيات لا يتم الحكم على الواقع أو على الشئ بالصورة الصحيحة،

---

(1) تفسير ابن كثير، المجلد الأول، صفحة (74). بتصرف.
(2) البقره: (31).
(3) النبهانى - الشيخ تقى الدين، الشخصية الإسلامية، الجزء الثالث، صفحة (117).

وعناصر التفكير أربعة:

1. دماغ صالح.
2. واقع محسوس.
3. حواس.
4. معلومات سابقة.

وبما أنّ الله تعالى قد وَهَبَ آدم الدّماغ الصالح والحواس، وَأوْجَدَهُ فى واقع معيّن، لذا لزم أن يُزَوِدَهُ الله تعالى بالمعلومات "الأسماء وصفاتها وخواصها" حتى تتم عمليّة التفكير للحكم على الأشياء والوقائع. لذا فقد علّم الله آدم كلها.

إنَّ قصَّة خَلق آدم وما رافقها من وقائع وأحداث، قد وردت مفصلة فى القرآن الكريم فى عدة مواضع، شارحة ومفصلة، معلمة إيانا، مبينة لنا وقائعها الحقيقية، طالبة منا الإعتقاد الجاذم بها، فإلى النُّصوص القرآنيّة التى تقص علينا ذلك، قال تعالى:

1. من سورة البقرة.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ

أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[1]

2. من سورة الأعراف.

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ}[2]

جاء فى الظلال: (**إنّ الخَلق** قد يكون معناه: الإنشاء والتّصوير، وقد يكون معناه: إعطاء الصورة والخصائص... وهما مرتبتان فى النشأة لا مرحلتان... فإنّ "**ثُمّ**" قد لا تكون للترتيب الزمنى ولكن للترقى المعنوي، والتّصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود فالوجود يكون للمادة الخامة، ولكن التّصوير ـ بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص - يكون درجة أعلى من من درجات الوجود. فكأنه قال: إننا نمنحكم مجرد الوجود، ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية، وذلك كقوله تعالى:{**الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**}[3] وعلى أية حال فإنّ مجموع النصوص القرآنية فى خلق آدم عليه السلام وفى نشأة الجنس البشري، ترجح أنّ إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة كان مصاحباً لخلقه. وأنّ الترقى فى تاريخ الإنسان كان ترقياً فى بروز الخصائص ونموها وتوزيعها واكتسابها الخبرة العالية. ولكن لم يكن ترقياً فى وجود الإنسان من تطور حتى انتهت إلى الإنسانيّة كما تقول الداروينية.

---

(1) البقرة: (30 - 34).
(2) الأعراف: (10 - 11).
(3) طه: (50).

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً - بدلالة الحفريات التى تعتمد عليها نظرية النشوء والإرتقاء - هو مجرد نظرية ظنية وليست يقينية، لأنّ تقدير أعمار الصخور ذاته فى طبقات الأرض لا يتم إلا ظناً!! أى مجرد فرضٍ كتقدير أعمار النجوم من اشعاعها. وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تُعَدِلها أو تُغيرها أو تنسفها نَسْفاً. على أنه - على فرض العلم اليقينى بأعمار الصخور - ليس هناك ما يمنع من وجود أنواع من الحيوان فى أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض... ثم انقراض بعضها.. ولكن هذا لا يحتم أن يكون بعضها متطور من بعض... لاتستطيع أن تثبت فى يقين مقطوع به أنّ هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذى قبله من الناحية الزمنية - وفق شهادة الطبقة الصخرية التى يوجد فيها - ولكنها تثبت أنّ هناك نوعاً أرقى من النوع الذى قبله زمنياً... وعندئذٍ تكون نشأة النوع الإنسانى نشأة مستقلة، فى الزمن الذى علم الله أنّ ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقى لهذا النوع، وهذا ما ترجحه النصوص القرآنية فى نشأة البشرية، وتفرد الإنسان من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية. هذا التفرد الذى اضطر الداروينيون المحدثون "وفيهم الملاحدة بالله كلية" للإعتراف به، دليل مرجح على تفرد النشأة البشرية، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى فى تطور عضوي.)[1]

وقال إبن كثير: (وذلك انه تعالى لمّا خلق آدم عليه السّلام بيده من طين لازب، وصَوَّرَهُ بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسّجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، وهذا الذى قررناه هو اختيار "ابن جرير" أنّ المراد بذلك كله

---

(1) قطب - سيد قطب، فى ظلال القرآن، المجلد الثالث، الصفحات (1264 - 1265). ويمكن الرجوع إلى فصل "حقيقة الحياة" فى القسم الثانى من كتاب "خصائص التطور الإسلامى ومقوماته".

آدم عليه السلام. وقال سفيان الثورى عن الأعمش بن عمرو عن سعيد بن جبير عن إبن عباس **"ولقد خلقناكم ثم صورناكم"** قال: خلقوا فى أصلاب الرجال وصوروا فى أرحام النساء... ونقل ابن جرير عن بعض السّلَف أيضاً أنّ المراد بخلقناكم ثم صورناكم: الذُّرِيَة.)[1]

وقال الأستاذ عبد الوهاب النّجار: (**خلقنا أصلكم الذى نسلكم وكنتم من أبنائه، فَخَلْقُنا لـه خَلْقٌ لَكُمْ.**)[2]

3. من سورة الحجر.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}[3]

الصَلصـال: هـو المنـتن مـن الطـين. **الحمـأ**: هـو الطـين الأسـود المنـتن. **المسنون**: هو المتغير. وجاء فى "لسان العرب": (الصلصال من الطين ما لم يُجعل خزفاً، وكل ما جَفَّ من طينٍ أو فخار. والمسنون هو المُصَوَرَ وهو المتغير المنتن. والحمأ هو الطين الأسود المنتن. من حمأ مسنون أى متغير منتن)[4]

أمّـا أبـوبكر الـرازى فيقـول: (الصلصـال هـو الطـين الحـر خُلِطَ بِالرّمـل فصار يتصلصل إذا جف، فإذا طبخ بالنّار فهو الفخار، والحمأ هو الطين الأسود، والحمأ المسنون هو المتغير المنتن)[5]

---

(1) تفسير ابن كثير، المجلد الثاني، الصفحات (202 - 203).
(2) النجار - عبد الوهاب، قصص الأنبياء، صفحة (2).
(3) الحجر: (26 - 31).
(4) ابن منظور، لسان العرب، مجلد (11)، صفحة (382).
(5) الرازي: أبو بكر، تفسير الصحاح، الصفحات: (153) و (368).

قال الدكتورمحمد البهي: (الصلصال هو الطين اليابس الذى له رنين وصوت، والحمأ هو الطين الأسود المتغيّر، والمسنون هو المصوّر والمصبوب، أى صورنا هيكل هذا المخلوق المعهود من طين يابس طال اختلاطه بالماء حتى تغير واسود لونه)[1]

كما ورد فى تفسير ابن كثير: (من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون، وقال قتاده: استلّ آدم من الطين، فإنّ آدم عليه السلام خُلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى:{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ}[2]» [3]

1. من سورة الكهف.

{وَإذ قلنا لِلْمَلائِكَةِ إسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاّ إبْليسَ كانَ مِنَ الجِنّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبّهِ أفَتَتْخِذونَهُ وَذرِيَتَهُ أولياءَ مِنْ دونى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌ بِئْسَ لِلظالِمينَ بَدَلاً}[4]

2. من سورة "ص":

{وَإذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إنّى خالقٌ بَشَراً مِنْ طينٍ * فَإذا سَوَيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ روحى فَقَعوا لَهُ ساجِدينَ * فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلهم أجْمَعونَ * إلاّ إبْليسَ اسْتَكبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرينَ}[5].

---

(1) البهى - الدكتور محمد، تفسير سورة الحجر، صفحة (19).
(2) الروم: (20).
(3) تفسير ابن كثير، المجلد (2)، صفحة (551).
(4) الكهف: (50).
(5) ص: (71 - 74).

3. من سورة المؤمنون.

{وَلَقَدْ خَلَقنا الإنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طين}[1]

وفيما روى عن رسول الله ρ أنه قال:

(إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأسود والأبيض وما بين ذلك، ومنهم الخرق والسهل وبين ذلك، وإنّما سمى آدم لأنه من أديم الأرض.)[2]

---

(1) المؤمنون (12).
(2) رواه مسلم فى صحيحه.

2- إبليس ومعركته مع الإنسان

سأل الله تعالى إبليس عن سبب امتناعه عن السجود لآدم، وقد أمره الله بذلك، فكان تعليل إبليس لذلك يتضمن الغطرسة والكِبَرَ والغرور والجموح، معللاً تمرده وعصيانه وخروجه من موكب الكون الحق السائر بطاعة الله والانقياد لـه أنّ أصل نشأته خير من أصل نشأة آدم، فإبليس قد خُلق من نار، فى حين أنّ آدم قد خُلِقَ من مادة الطين، والنّار أعلى مرتبة من الطين، فكان تعليله لِلأمرتعليلاً مادِيّا بحتاً، فقد تعرض فى تعليله لبحث المادة التى تّمَّ منها الخلق، غاضّاً الطرف عن أنّ أى منهم لم يقم بخلق نفسه، ولم يكن لـه الرأى أصلاً فى إختيار المادة التى خلق منها، ودون النظر فى تكريم الله لِلإنسان بإختصاصه فيما لا يدخل فى مجال الجسد - أى العقل والإدراك والتمييز والعِلم - وذلك كافٍ لتفضيله على الملائكة وسائر المخلوقات.

إنّ عدم انصياع إبليس لأوامر الله الخالق المدبر، هو عصيان وتمرد على الذّات الإلهيّة، وصلف وتكبر وغطرسة وجرأة، وحقّ للعاصى الظالِم نفسه أن ينال عقوبة ما أثمت يداه، فأتى العقاب رهيباً على قدر حجم المعصية، إذ أوعِدَ النار والخروج من الجنة، لأنّ الجنة ونعيمها لا يكون للمستكبرين العصاة المتردين.

طلب إبليس من ربه إمهاله إلى يوم البعث والحساب، متوعداً ذريّة آدم - التى بسبب أبيهم لحقه ما لحق من غضب الله - متوعداً إياهم بالسّعى الدائب لغوايتهم وإضلالهم بالتزيين لهم بعصيان الله وعدم حمده وشكره وتسبيحه، فأنْظَرَهُ الله تعالى متوعداً إياه ومن تبعه من ذرية آدم بعذاب يوم عظيم.

خرج إبليس من الجّنَة حقيراً ذليلاً صاغراً مطروداً من رحمة الله، متوعداً آدم وذريته بقيادتهم للمعاصى والآثام، مزيناً لهم سوء الأعمال،

مبعداً إياهم ما استطاع لذلك سبيلاً عن طاعة الله، صارفاً إياهم للشرك والإلحاد والكفر والضلال.

ويتوعد الله تعالى إبليس ومن إتبعه بالعصيان من ذرية آدم: إستخف وأبعد عن الصواب من استطعت، وأفرغ جهدك بكل ما استطعت من أنواع الإغراء..... شاركهم فى كسب الأموال الحرام وفى صرفها فى المعاصى والمنكرات.. ساعدهم وأنسالهم على الكفر، أغرهم وزين لهم الفساد والإفساد، زين لهم النفاق والكذب والفجور، قدهم إلى كل باطل وضلال، أبعدهم عن الحق ما استطعت، ويحذر رب العزّة محذراً البشر من ذرية آدم أنه ما يعدهم الشيطان إلاّ الغرور والكذب والضلال. أمّا من أخلص من عباد الله المؤمنين فليس للشيطان عليهم من سبيل، فلا سلطة ولا قدرة له على إغوائهم وإضلالهم إن أخلصوا النية وأخلصوا العمل وتوكلوا على الله خالقهم ومصورهم، وكفى بالله نصيراً.

أسكن الله آدم وزوجه حواء الجنّة، مبيحاً لهما أن يتمتعا بكل النّعم فيها، يأكلان ويشربان كل ما تشتهى أنفسهما من ثمراتها وخيراتها، إلاّ شجرة واحدة أمرهما ألا يقرباها، وألا يتذوقا ثمرها، إذ هى محرمة عليهم. وإن فعلا خلاف ذلك يكونا قد ظالمى نفسيهما بعصيانهما أمر ربهما إذا خالفا أمره، أى أنهما قد وضعا أمام إمتحانٍ يترتب عليه تقرير مصيرهما، مما يترتب عليهما فى حالة المخالفة والعصيان جزاء وعقاب.

(لم يخبرنا النّص القرآنى ما نوع تلك الشّجرة، فقال بعضهم: الحنطة "القمح" وقال آخرون: شجرة التفاح. وقيل: هى الكرمة، **لـذا** حُرّمَ علينا الخمر. وقيل هى السّنبلة وقيل هى شجرة التين. وقال إبن عطية: وليس فى شى من هذا التعيين ما يَعْضُدُهُ خبَر، وإنّما الصّواب أنْ يُعْتَقد أنّ الله تعالى

نهى آدم عن شَجَرَةٍ فخالَفَ هو إليها وعصى فى الأكل منها.)[1] وما دام القرآن لم يعلمنا ماهى تلك الشجرة الممنوعة، فليس لنا محاولة التَكهن عن ماهيتها، ولا يعنينا من أمرها شيء. والله تعالى أعلم.

لقد كان موضوع الشجرة المحرمة على آدم وزوجه هى أول منفذٍ لإبليس ينفذ منه إلى إغواء آدم وزوجه قبل أن يبدأ فى إغواء نسلهما مستقبلاً، لذا فقد سُرَّ إبليس به واغتنمها فرصة إشفاء غليله بغواية عدوه آدم وزوجه ولينتقم منهما، فأخذ يُفْرِغ جهده بالتّزيين لهما، والتّزلف لكليهما، بإقناعهما بالأكل من تلك الشّجرة المحرمة عليهما.

كان من ضمن الوسائل التى توسل بها الشيطان لهما لحثهما على العصيان وسيلة الإغراءات بأنّ تلك الشجرة هى شَجَرَة الخلد والنّعيم المقيم الذى لا يفنى، وأنّ منع الله لهما من الأكل منها كان لئلا يصبحا مَلَكَين، ولئلا يخلدا فى الجنة ذات الخيرات والنعم الكثيرة، ولكى يصدقاه فقد أقسم على أقواله بمختلف الأيمان المغلظة، مُقْسِماً على أنه لهما النَاصح الأمين.

ومن كثرة إلحاح الشيطان عليهما، وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً، فقد نسى آدم وحواء أنّ إبليس هو فى حقيقته عدوهما اللدود الحاقد إلى يوم البعث والحساب، وأنه لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يكون لهما النّاصح الأمين، فوقعا فى مكائد الشيطان عدوهما، وعصيا أمر ربهما بأكلهما من الشّجرة المحرمة عليهما. ولمّا تذوقا طعمها تكشفت لهما عورات أنفسهما، فطفقا يجمعان من أوراق الجنّة ليواريا عوراتهما، فناداهما ربهما مؤنباً وزاجراً لهما عصيانهما:{**أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ**}[2] عندها أحَسّا بحجم مَعصِيَتِهما وسوءَ ما قَدْ

---

(1) تفسير القرطبي، المجلد الأول، صفحة (305).
(2) الأعراف: (22).

فَعَلا، وَشَعَرا حجم معصيتهما بمخالفة أمر ربهما، فأخذهما النّدَم الشَّديد، وتوجها تائبين مبتهلين متضرعين إلى الله ربهما أن يتوب عليهما ويرحمهما ويغفر لهما مخالفتهما وعصيانهما:{قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}(1)

قَبِلَ الله التّواب الرّحيم تَوْبَة آدم وحواء فغفر لهما:{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}(2) والإنسان خَطاء، وللخطأ والعصيان - حتى الإسراف بهما وحتى الكفر - علاج هو التّوْبَة. فالتوبة تغسل المعصية، والعاصى التائب مغفور الذّنب، فالإنسان لم يخلق آثِماً، ولم يلاحقه إثم ما صنع أبَواه، فَأبَواهُ قَدْ تابَ اللهُ عليهما، غَفَر لهما ذنبهما، ولن يأخذ الله الأبناء بذنب الآباء أبداً. قال رسول الله ρ: (كُلّ بنى آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون)(3) وذلك مطابق لقوله تعالى:{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}(4)

بعد أن تاب الله على آدم أنزله وزوجه حواء من الجنة إلى الأرض، وأخبرهما أنهُ سَيَكون بين نسلهما عداء لبعضهم البعض، وأنّ سكناهم منذ اليوم سيكون الأرض يعمرونها ويتمتعون بها مُسْتَخلفين فيها، ومُسّخرة ومن بها ومن عليها ولذرياتهم من بعدهم، إلاّ أنّ تلك السُّكنى فى الأرض سَتَكون إلى حين من الزّمَن، أى أنها سَتَكون سُكنى عابِرَة لحين إنتهاء أعمارهم المقدرة عليهم، وأنّ الله سَيُزَوِدَهُم بِالهُدى والرَشاد، فمن سار على الدّرب القويم وهُدى الله تعالى فلن يقع فى المآثِم والذُنوب ولن يشقى بها، وسيحيون ويموتون فيها، ومنها سَيُبعَثون يوم الحساب، حيث سيجزى كل

---

(1) الأعراف: (23).
(2) البقرة: (37).
(3) سنن الترمذي: (2499).
(4) الزمر: (53).

منهم جزاء ما قدّمت يداه، خيراً كان أم شَراً. وسنستعرض إن شاء الله بعض النّص القرآني لتلك الحادثة:

1. من سورة البقرة.

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}(1)

2. من سورة الأعراف.

{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل

(1) البقرة: (35 - 38).

لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}(1)

2. من سورة الكهف.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً * مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}(2)

3. من سورة "ص"

{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}(3)

4. من سورة الإسراء.

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ

---

(1) الأعراف: (12 - 25).
(2) الكهف: (50 - 51).
(3) " ص ": (75 - 83).

وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً}(1)

5. من سورة طه.

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى}(2).

استعرضنا فيما مرّ قصّة آدم عليه السّلام ومعركته مع إبليس، كما قصّها علينا رب العزة فى محكم التّنزيل، إنها قصّة الإغواء ونوازغ الوسوسة، ابتدأها إبليس مع أول البشر وأبيهم، واستمرّ بها ولا زال مع ذريته، بدءاً بقابيل وهابيل ابنى آدم، وسيستمر بها إلى يوم القيامة، يبين لنا النّص القرآنى وقائع الحدث بتسلسل جميل، لا لنضيف إلى علمنا معلومة جديدة، ولا لنزيد قصصنا قصة أخرى مشوقة، بل ساقها إلينا لنتذكر فنعتبر، فإبليس يعمل جاهداً لغواية البشرية ما استطاع لذلك سبيلاً، وجنود إبليس دائبون جاهدون بهمة لا تفتر ونشاط مستمر فى إغواء البشر وإضلالهم وصرفهم عن السير فى موكب الكون الحق السائر فى طاعة الله

(1) الإسراء: (61 - 65).
(2) طه: (115 - 123).

وتسبيحه... فقد كذَبَ الناس الرُّسُل، وعصوا الله ربهم، والحد وكفر بالله وأنعمه عليهم أناس، وادعى النبوة والإلوهية آخرون، وآخرون أنكروا الخلق رغم شواهده الماثلة أمام أعينهم، وآخرون عللوا وجود أنفسهم والمخلوقات جميعاً بالصّدفة العشوائية، وعللوا النّمو والتكاثر بالتطورالمادي... كل هؤلاء واولئك هم أتباع إبليس وجنوده، كما أنّ من أتباعه الكاذب والمنافق والزانى وآكل الرّبا وموكله والعلماء المفتون بجوازه... ومشايخ السّلطان الذين يقولون على الله الكذب... وأول أتباعه وجنوده وأصفقهم وجهاً من أنكر وجود الله تعالى وأنكر الخلق وكذّب الرُّسُل.

ولا أرى موجباً فى هذا البحث المحدد الهدف أن نتناول بالتَّفصيل والإسهاب شرح هذه الآيات الكريمات، فقد أوفت كتب التّفسير كل آيات القرآن الكريم حقها من التّفسير، فعلى من رغب الإستزادة والتّفصيل العودة إلى كتب التّفسير وهى كثيرة وفى متناول يد الجميع.

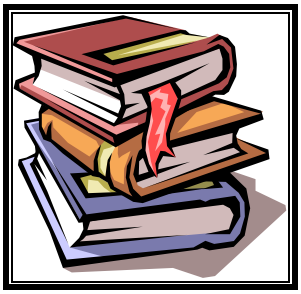

3- خلق الزوجة (حواء)

قال تعالى:{**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**}(1) وَقالَ تَعالى:{**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا**}(2) وقالَ رَسول الله ρ: «**خلقت المرأة من ضلعِ أعوج فإن تنقمها تكسرها وإن تتركها تستمع بها على عوجها**» (3).

قال المفسرون: (لمّا أسكنَ الله تعالى آدم الجنّة كان يمشى بها وَحْشِياً، (4) لم يكن له من يجالسه ويؤانسه، فألقى الله عليه النّوم، فأخذ ضِلعاً من أضلاعِه من شِقِهِ الأيسَرَ يقال له "القيصري" فخلق منه حواء من غير أن يحسَّ آدم بذلك ولا وجد ألماً، ثم ألبسها من لباس الجنَّة وزيّنها بأنواع الزّينة، وأجلسها عند رأسه، فلما هبَّ من نومه رآها قاعدة عند رأسه، فسألته الملائكة يمتحنون علمه: ماهذه يآدم؟ فقال: إمرأه، ولما سألوه عن اسمها قال: حوّاء. ولما سألوه: لمن خلقها الله؟ قال: لتسكن إلى وأسكن إليها...)(5)

إن الله تعالى قد خلق "حواء" لتكون "زوجَة" لآدم، يسكن إليها وتسكن إليه. وبالتالى ليبدأ الفصل الثانى من نظام الخلق الذى سنَّهُ الله تعالى، الآ وهو التزاوج والتناسل، الذى فَرَضَهُ الله تعالى القانون الوحيد الذى يتم به وحده خلق

---

(1) الروم: (21).
(2) الأعراف: (189).
(3) العسقلاني، فتح البارى شرح صحيح البخاري، مجلد (9: 252). - تفسير القرطبى (1: 302).
(4) أى استوحش وحنَّ إلى الرفيق.
(5) القصة مقتبسة بتصرف من: النيسابوري، قصص الأنبياء، الصفحات (29 - 35). - ابن كثير، البداية والنهاية، (1: 74). - القرطبي، تفسير القرطبي، (1: 301، 302).

الإنسان بعد خلق آدم وحواء، ولم يُخرج عن هذا القانون إلا "عيسى ابن مريم عليه السَّلام" لحكمة أرادها الله تعالى.

لقد خلق الله الإنسان "الرَّجل والمرأة" فى فطرةٍ معينةٍ تمتاز عن الحيوان، فكلاهما إنسان لا يختلف أحدهما عن الآخر فى الإنسانية بشىء، ولا يمتاز أى منهما بأى امتياز من امتيازات الإنسانية مطلقاً، لذا فقد هيأهما الله سوية لخوض معترك الإنسانية فى مجتمع واحد وجعل بقاء النَّوع الإنسانى متوقفاً على اجتماع الرّجل والمرأة فى مجتمع واحد، وقد خلق الله فى كلٍ منهما طاقات حيوية هى نفس الطاقات الموجودة فى الآخر، وأودع فى نفس كل منهما الرّغبة لإشباع جوعات وثورات تلك الطاقات، كما أودع فى نفس كل منهما القابلية لإثارة تلك الطاقات لتتطلب الإشباع، وأياً كان نوع تلك الطاقات فقد أودعها الله فى كليهما.

والطاقات الكامنة فى نفس الإنسان نوعان، تبعاً لنوعية الإثارة - من داخلية وخارجية - وتبعاً لحتمية ألإشباع من عدمه حين تتطلبه، وتبعاً لما ينتج فى حالة عدم الإشباع إثر تطلبه وهى نوعان:

الحاجات العضوية: مثل الجوع والعطش وقضاء الحاجة.

الغرائز: التى تقسم بدورها إلى ثلاث أنواع: [غريزة التدين. غريزة النوع. غريزة حب البقاء]

والغرائز جميعها هى كامنة فى كليهما، فهى موجودة فى المرأة كما هى موجودة فى الرّجل، وبنفس الصفة والنوعية، كما أنّ فى كليهما القدرة على التفكير بنفس القوة، فالعقل الموجود فى أى منهما هو نفس العقل الموجود فى الآخر.

إلا أنَّ "بقاء النوع الإنساني" الذى هو من الأهداف العليا لصيانة المجتمع التى حافظ عليها الإسلام، قد حُصِرَ فى إجتماع الرّجل والمرأة؛ فغريزة النوع وإن أمكن أن يشبعها ذكر من ذكر "لواطاً" أو أنثى من أنثى "سحاقاً، إلا أنّ مثل هذا الإشباع - وإن تَمَّ - لا يمكن مطلقاً أن يؤدى الغاية التى من أجلها وُجِدّت تلك الغريزة فى الإنسان، إلا فى حالة واحدة هى أن يشبعها الذكر من الأنثى وأن تشبعها الأنثى من الذكر.

لـــذا فإنّ صلة الزوجية من الناحية الجنسية هى الصلة الطبيعية التى لا غرابة فيها، والتى تمت حكمة الله تعالى أن تكون قانون وجود النوع الإنساني، فهى الصلة الأصلية التى بها وحدها يتحقق الغرض من ايجاد الغريزة، ألا وهو بقاء النوع الإنساني. فإذا وقعت بينهما هذه الصلة على شكل الاجتماع الجنسى كان ذلك بديهياً ومنطقياً وطبيعياً وبعيداً عن الغرابة، بل كان مثل هذا الاجتماع أمراً حتمياً ولازماً لتحقق بقاء النوع الإنساني، إلا أنّ إطلاق هذه الغريزة هو أمر مضر للإنسان وحياته الاجتماعية.

ونظرة الإسلام إلى الغرض من وجود الغريزة أنَّه: "النّسْل لبقاء النوع الإنساني"، **لـذا** فقد وَجَّهَ الإنسان لجعل نظرته لتلك الغريزة منصبَّة عل الغرض الذى وُجِدَت من أجله فى الإنسان، وشدد على حصر النظرة بهدف بقاء النوع الإنسانى لدى كل من الرجل والمرأة، بغض النظر عن اللذة والاستمتاع الحاصلتين طبيعياً وحتمياً نتيجة الإشباع.

وبما أنّ الإسلام يعتبر أن لا صلاح لأى جماعة إلاّ بتعاون أفرادها - ذكوراً وإناثاً - بإعتبارهما أخوَين مُتضامِنَيْن تضامن مودة ورحمة، لذا فقد أكّدَ الإسلام على ضرورة إيجاد مفهومٌ عند الناس - ذكوراً وأناثاً - عن كيفية إشباع غريزة النوع وعن الغاية من وجودها، فأنشأ لهم نظاماً إجتماعياً متميزاً، يُزيل تسلط مفاهيم الإجتماع الجنسي، بجعلها أمراً طبيعياً وحتمياً للإشباع لأجل تحقق النسل والتكاثر، كما يزيل مفهوم حصر تلك

الصلة باللذة والاستمتاع، وبالتالى يجعلها نظرة تستهدف مصلحة الجماعة بالتناسل والتوالد. (1)

وباستعراض بعض النصوص القرآنية التى تناولت الموضوع، نرى أنها أتت منصبة على "الزوجيّة" مما يثبت أن خلق الغريزة وايداعها فى الإنسان ذكره وأنثاه كان أصلاً لأجل هدف سام هو: الزوجية للنسل والتكاثر بهدف بقاء النوع الإنساني. قال تعالى:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}(2)

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}(3)

{وَلَقَدْ أَرْسَلنا رُسُلاً مِنْ قَبلِكَ وَجَعَلنا لهُمْ وَذُرِيَةً}(4)

{وَاللهُ جَعَلَ لكمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أزواجاً * وَجَعَلَ لكمْ مِنْ أزواجِكمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً}(5)

---

(1) هذا البحث منقول بتصرف عن كتاب "النظام الاجتماعى فى الإسلام" للعلامة تقى الدين النبهاني، الصفحات (18 - 21).
(2) الأعراف: (189).
(3) النساء: (1).
(4) الرعد: (38).
(5) النحل: (72).

{وَمِنْ آياتِهِ أنْ خلقكم مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إذا أنتمْ بَشَراً تَنْتَشِرونَ * وَمِنْ آياتِهِ أنْ خلقَ لكمْ مِنْ أنفسِكمْ أزْواجاً لِتَسْكنوا إليْها وَجَعَلَ بَيْنَكمْ مَوَدَةَ وَرَحْمَةً إنَّ فى ذلِكَ لآياتٍ لِقوْمٍ يتفكرونَ}(1)

{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}(2)

{وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى}(3)

إنَّ الله تعالى قد سلط الخلق على الزوجين الذكر والأنثى من ناحية الزّوجيّة، وحصر التوالد والتكاثر بين البشر بها، هذا هو قانون الخلق الوحيد الذى به وحده يخلق ويوجد أى إنسان، وهو المفهوم الوحيد الذى غرسه فى أذهان البشر، وكرر ذلك حتى يظل المفهوم والنظرة إلى الصلات بين الذكر والأنثى منصبة على الزوجيّة أى على النّسل لبقاء النوع الإنساني، نفياً ومبطلاً أى نظرة أو مفهوم يخالف ذلك.

وبدراستنا لواقع العيش فى المجتمع الجاهلى فى الجاهليّة الأولى، وهى الفترة التى سبقت الإسلام، وأحوال المرأة بالذات، نجد واقعها أنها كانت متاعاً أو كالمتاع، لاتملك من أمر نفسها شيئاً، ولا يُعْتَرَفُ لها برأى أو إرادةٍ أو مشورةٍ حتى فى شؤونها الخاصة، وقد كانت نظرة الزراية بها والهضم لحقوقها والنفى لشخصيتها تسود العالَمَ أجمع، وليس عند العرب فقط، فكانوا يكرهون أن يرزقوا الإناث. قال تعالى:

---

(1) الروم: (20 - 21).
(2) الشورى: (11).
(3) النجم: (45).

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِـالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُـهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ}(1)

إنَّ الإسلام قد نظر إلى الإنسان "رجلاً كان أم امرأة" أنهُ إنسان فيه الغرائز والميول وفيه العقل والإدراك أيضاً، وأباح وهيأ ومكن الإنسان التمتع بلذائذ الحياة، ولكن على وجه يحفظ الجماعة والمجتمع، ويؤدى إلى تمكين الإنسان من السّير قدماً لتحقيق سعادة وهناء الإنسان داخل مجتمع متوازن تسوده الطمأنينة وتحكمه السنن والقوانين والضوابط الموافقة للفطرة التى أودعت بالإنسان. وبما أنّ حفظ النوع الإنسانى من أهداف الإسلام العليا لصيانة المجتمع، ولأجل تحقق تلك الأهداف والغايات أتت ضرورة وحتمية الحفاظ على النَّسب، وبناء عليه فقد حصر الإسلام صلة الجنس بالزواج أو ملك اليمين. وللحفاظ على النسب وللحيلولة دون اختلاطه، فقد سَنَّ الأنظمة والأحكام التى تكفل المجتمع من اختلاط النّسب وتلك التى تكفل الحفاظ عليه، بجعل كل صلة أو علاقة تخالف ذلك وتخرج عنه جريمة تستوجب أقصى أنواع العقوبات الرادعة، ولبشاعة تلك الجرائم وخطورتها على المجتمع وحتى تكون العقوبات زاجرة رادعة، فقد سُنت ضمن الحدود التوقيفية التى لا يجتهد فى مضمونها، محذراً من الرأفة والرَّحمة لمرتكبوا تلك الجرائم، قال تعالى:{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}(2)

---

(1) النحل: (58 - 59).
(2) النور: (2).

من هنا يتبين مدى الفرق الشاسع بين نظرة الإسلام للاتصال الجنسى المنبثق عن نظرته لطبيعة الغريزة الكامنة فى الإنسان ذكره وانثاه ولطرق اشباعها، ونظرته للمرأة نفسها وللناحية الزوجية التى تقتضيها وتفرضها طبيعة وجودها مع الرجل فى مجتمع واحد؛ وبين نظرة الجاهلية الحديثة، فإنَّ كل وجهات نظر الجاهلية الحديثة ومفاهيمها: مسلطة على الناحية الجنسية وكيف نستمتع بها، بل وكيف نكثر من انتهال المتعة واللذة. وبناء على تسليطهم على الناحية الجنسية فقط كوسيلة للمتعة واللذة وكهدف وغاية، فمن الطبيعى أن يترتب على ذلك نظرة للمرأة أنها بوتقة لإشباع الرّغبات الجنسية، لا بل وسيلة من وسائل الإثارة والايقاع وإشباع الشهوات الجنسية، صاحب ذلك اعتبارهم أنَّ عدم إشباع الغريزة بالجنس المطلق بلا ضوابط، وعدم اطلاق العنان لممارسته يشكل خطر على الصحه والعقل، وكبتٌ للغريزة التى لا بد من اطلاقها، وبما أنهم فهموا أنَّ وظيفة المرأة فى ذلك هو الاستمتاع بها والإثارة، كان الحل الوحيد فى نظرهم للمشكلة هو ايجاد المناخ المناسب للإثارة لدى كل من الرجل والمرأة بكل الوسائل المتاحة.

وبما أنّ عقولهم قد قصرت وعجزت عن إدراك السّبب الذى من أجله خلقت الغريزة فى الإنسان وهو بقاء النوع الإنساني، بالعلاوة على اعتقادهم بحيوانية الإنسان، فإنهم بالتالى قد فهموا العلاقة بين الرجل والمرأة من ناحية جنسية فى شكلها البدائى الحيواني، لذا فلا مانع عندهم لا بل من الطبيعى والبديهى والمنطقى - ما دام الجنس وممارسته قد أصبحا لديهم هدفاً يُسعى إليه لتحقيق اللذة والنشوة والاستمتاع - أن يُمارَسَ الجنس بصورة حيوانية منحطة، ما دام يفى بالمطلوب ويحقق الغاية ويوصل للإشباع، فمن الطبيعى أن يُمارَسَ الجنس بصورةٍ شاذة، كأن يمارسه رجل مع رجل، أو أن تمارسه أنثى مع أنثى، أو إتيان المرأة فى غير موضع

الحَرْث "موضع الحمل والتناسل".

لقد أثبتوا بذلك نظرية التطور!!! إذ طوروا الإنسان رجعياً، فحتى الحيوان البهيم الغير عاقل، والذى تطور الإنسان بزعمهم من نسله، لم ينحط إلى درجة الشذوذ بأن يواقع الذكر منه الذكر، أو أن تواقع الأنثى منه الأنثى، أو أن يواقع الذكر منه أنثاه فى غير موضع التناسل، إلا فى حالات نادرة.

قال تعالى:{**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**}(1)

لقد كان خلق حواء الزوجة كما فهمه آدم عليه السلام، وكما علمه الله تعالى، لتسكن إليه ويسكن إليها، أى للزوجية التى تعنى السّكن والمودة والرحمة، كما تعنى التلاقح والتزاوج، والإشباع الصحيح لجوعات الغرائز وثوراتها، والمنتجة للنسل والذرية والنسب، ولإيجاد النسل الإنسانى، وللمحافظة على بقاء النوع الإنسانى واستمرار وجوده، هذا النوع الذى سيحمل الأمانة والاستخلاف فى الأرض، ولينتظم فى موكب الكون السائر فى طاعة الله وعبادته. وليقضى الله أمراً كان مفعولاً.

---

(1) البقرة: (222 - 223).

4- مولد عيسى ابن مريم

لقد جعل الله تعالى سنته فى الخلق والميلاد قائمة على قانون الزوجيّة، فشاءت قدرته تعالى الا يولد إنسان إلا باختلاط مائى الرّجل والمرأة، ومرور هذا الاختلاط بالأطوار اللازمة لِتَكوُّنَ المخلوق فى حَمْلٍ تحمله امرأة، ثُمّ تَكوّن الجنين فى رحمها بتزاوج وتلقيح.

هذه هى السُّنَة التى سَنَّها الله تعالى قانوناً وناموساً لازِماً فى خلق الإنسان - كل إنسان - لا ولن يتخلف عن ذلك ولم يسبق تخلف حالة واحدة، فلا يمكن أن يوجَدَ إنسان إلا بتلك الطريقة. إلا أنَّ مشيئة الله وقدرته اقتضت أن يُخلقَ آدَمُ أوّلَ البشر مِنْ تُرابٍ أمْراً مُخالِفاً لِتِلْك القاعدةِ، وَأنْ تُخلقَ حَواء مِنْ ضِلع آدَمَ الأيْسَرَ أمْراً آخَرَ مُخالِفاً لِذلكَ الناموس. وَاسْتَمَرَّ تَكوّنُ وإيجاد الجِنس الإنسانى بطريقة المُعاشَرَة والتزاوج بين ذكر وأنثى، ليتم اختلاط المائين معاً، والتلقيح فى رحم الأنثى التى تحمل فى أحشائها ذلك الجنين الذى كان ثمرة اتصال جنسى بين ذكر وأنثى، لتحمله قدَراً مَعلوماً، يخرج بعدها بعملية ولادة بشراً سوياً.

إلا أنَّ ميلاد نبى الله عيسى عليه السّلام، قد تم بطريقة خالفت تلك القاعدة وشذت عنها، فلم تتم بقانون الخلق وناموسه، إذ سبقت إرادته وحكمته تعالى أن يأتى هذا المولود إلى الدنيا بطريقة خارقة للقاعدة والقانون، ليخالف ميلاده الشريف ميلاد جميع من أتى قبله وجميع من سيأتى بعده مستقبلاً من البشر، أى بمعجزة تكون آية أخرى من آيات الله لتدلل على قدرته فى الخلق، فكان ميلا د عيسى عليه السّلام بعملية "ولادة بدون أب *Partheno senis*" إذ أتى ميلاده الشريف المبارك من أم حملت به بدون أى إتصال جنسى مع رجل، فكان الحمل والميلاد من أم عذراء[1]

---

(1) العذراء: هى التى لم تلد، ولم يسبق لها الزواج أو الوطء، ولم تفضَّ بكارتها.

بتول[1] لم يمسسها بشر مطلقاً، فلم يمتزج ماؤها بماء رجل بتاتاً، لِيُذكرّ الله تعالى الناس جميعاً: أنَّ مَنْ خَلقَ عيسى قد خلق من قبلِهِ آدَمَ بدون أم ولا أب. وفى ذلك قولـه تعالى:{**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**}[2]

وإذا تجاوز البشر حادث خلق الإنسان أصلاً وإنشاءه على هذه الصورة، فإنَّ ميلاد عيسى عليه السلام يكون أعجب ما شهدته البشرية فى تاريخها الطويل. إذ هو حادث لم تعهده البشرية لا من قبل ولا من بعد، والإنسان لم يشهد خلق نفسه، وبالتالى لم يشهد خلق أول إنسان من غير أبوين، واعتاد البشر على مر التاريخ، ومن خلال تعاقب الدّهور والأيام أن يروا الخلق والتكوين يأتى مشاهداً بالسُّنَة المعهودة والطريقة الثابتة، فلم يعهدوا أن يأتى إنسان كائنا من كان إلى هذه الحياة الدنيا بلا اتصال جنسى بين رجل وامرأة، أى بين ذكر وأنثى. فأتت المعجزة الإلهية تبرز العجيبة الثانية فى مولد عيسى ابن مريم من غير أب..... من أم عذراء بتول لم تمارس الجنس مطلقاَ ولم يمسسها بشر، وذلك مخالف وخارق للعادة التى جرت منذ وُجِدَ الإنسان نفسه على هذه الأرض، ليشهدها البشر، ثم لتظل عالقة بأذهانهم مُذكرة الناس جميعا بمقدرة الله، ولافتة النظر إلى المعجزة الأولى ميلاد آدم.

لقد جرت السُّنَة فى الخلق واستمرار الحياة أن يكون ذلك بالتناسل والتكاثر الآتى من اتصال جنسى بين ذكر وأنثى، جرت هذه السُّنَة أحقاباً طويلة، حتى استقر فى تصور البشر أنّ تلك هى الطريقة الوحيدة والناموس الأوحد. ونسوا حادث وجود النوع الإنسانى أصلاً، ذلك الحادث الذى لم

---

(1) البتول: هى العذراء المنقطعة عن الزواج إلى العبادة.
(2) آل عمران: (59).

يشاهده بشر، فشاءت إرادة الله وقدرته أن يَضرب لهم مثلاً يُشاهدونه بِأعينهم وهو ميلاد عيسى ابن مريم ليذكرهم بقدرة الله المطلقة التى لا تخضع ولا تحتاج لقوانين ولا لنواميس ولا لقواعد، إذ أنه إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون.

يقص علينا القرآن الكريم قصة ميلاد عيسى ابن مريم عليه السلام:

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}[1]

ممن وُلدَ المسيح؟ من فتاةٍ عذراء بتول طاهرة نقية تقية، نذرت نفسها لعبادة الله ربها، لم يُعرَف عنها وعن أسرتها إلا التُقى والصلاح والنقاء والطهارة، كانت معروفة لقومها أنها مِثال الطهارة والعفة، حتى أنها تنتسب إلى هارون أبى سدنة المعبد اليهودى المتطهرين..... أنها عذراء بتول، لم تقترف الزنا والفاحشة، ولم تمارس الاتصال الجنسى لا حلالاً ولا حراماً. يؤكد ذلك شهادة قومها: **"يا أخت هارون"**[2] وبصريح النص القرآنى الذى يؤكد أن الميلاد كان من عذراء بتول تقية نقية طاهرة، لا بل مثال للطهارة

---

(1) مريم: (16 - 24).

(2) "يا أخت هارون" عبارة درج يهود فى ذلك الوقت إطلاقها على الفتيات المشهود لهم بمنتهى العفة والطهارة والتقى والصفاء والنقاء، وإحصان الفرج وغض الطرف. - مما يعنى شهادة من قومها فى معرض التعجب والاستهجان على فعلها الظانين به إثماً.

والعفة، أحصنت فرجها ولم تقترف الزنا والسفاح والآثام، ذات التربية الصالحة والمنبت الطيب الأصل من سلالة الأتقياء الأطهار:{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}(1)

وضعت مريم حملها آتية بالمعجزة لبنى إسرائيل{وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً}، تحمل لهؤلاء القوم المشهورين بالعصيان والتمرد والتشكك حتى من الآيات البينات والحقائق المعلومة بالدليل الباتر، صورة أخرى من صور آيات الله ومعجزاته علهم يتفكرون، قال تعالى:{فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}(2)

لقد حملت مريم ابنة عمران العذراء البتول حملها الشريف الطاهر، ووضعته غلاماً زكياً، حملت هذا المولود وأتت به أهلها. فدُهِش القوم وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء المنقطعة للعبادة، تحمل لهم طفلاً وضعته لا يعرفون له أب!!! فانطلقوا يُقرّعونها ويوبخونها بإتيانها هذا الفِعل الفظيع المُستَنكر... طفقوا يذكرونها بتقواها وصلاحها المشهود{يَا أُخْتَ هَارُونَ}. كيف لا وهى من تلك الذرية المشهود لهم بالتقى والصلاح!!! كيف تأتى

---

(1) التحريم: (12).
(2) مريم: (27 - 35).

بذلك الفعل الشنيع الفاحش المستهجن المستقبح وهى سليلة الصالحين الأتقياء العباد القانتين المخلصين!!!. إنّ معلوماتهم الموثقة أنه لا يمكن أن يأتى مولود إلى هذه الدنيا مطلقاً إلآ بإتصال جنسى بين ذكر وأنثى "مشروع أو غير مشروع"، فلا يمكن أن يكون حمل وولادة إلا بطريقة الزوجية المشروعة، أو بالسِفاح غير المشروع. وكلاهما تزاوج واتصال جنسى بين ذكر وأنثى يُنتج تلقيح وحمل وولادة، والسِّفاح هو تزاوج غير مشروع، **لـــذا** فهو مستقبح ومستهجن، خاصة إن أتى من مريم إبنة عمران، التى هى كما هوعلمهم ومعرفتهم العذراء التقية المنقطعة للعبادة، ابنة كرام الناس الأعلام الأبرار. وبما أنها أتتهم تحمل مولوداً بلا زواج، فالقاعدة أنها ما دامت عذراء لم تتزوج بعد، فمنطقهم يقول بأنها قد حملت بمولودها سفاحاً ولا بد.

وجواباً لتساؤلاتهم وشكوكهم فقد أشارت للمولود أن يسألوه ليأخذوا الرد منه وقد نذرت الصوم عن الكلام عبادة لله وامتثالاً، مما أثار استنكارهم لذلك قائلين{**كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**}؟. فكانت المعجزة الأخرى الخارقة العجيبة، إذ تكلم المولود فى مهده على غير المألوف المعهود، معجزة أخرى من معجزات الله تعالى، فتكلم المولود فى المهد على غير المعهود المألوف آية أخرى من آيات الله الدالة على قدرته، ونفى لأى ارتياب أو شك قد يعلق فى الأذهان بشأن طهارة أمه الوالدة، وهو بالتأكيد دليل دامغ على أنّ فى ولادة المولود سرٌ جديدٌ من أسرار الخلق. هذا الخلق المعجزة. والمعجزات هى أمور خارقة للعادة للتدليل على نبوة نبى أو رسالة رسول. إذاً فإنّ خلق عيسى عليه السلام بهذه الصورة الخارقة للعادة هى أيضاً من علائم النّبوة التى تنبئنا به النّصوص القرآنية به.

{وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ}(1)

إنَّ ولادة عيسى بن مريم عليه السّلام، بكل ما رافقها من خرق للقوانين والنواميس المعروفة لدى الناس، كانت آية من آيات الله، تُعلن قدرة الله تعالى وأنه سبحانه وتعالى لا يتقيد ولا يلتزم - متى شاء - فى خلقه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات الذى يَسيرُ العالم عليها مُجْبَراً بِأمر الله. وقد إتخذ البعض من ولادة عيسى عليه السلام بدون أب حجة على ألوهيته، كما اتخذ البعض الآخر ذلك منفذاً للطعن فى أُمه أو للتشكيك فى وجود المسيح، وهؤلاء جميعاً يخاطبهم الله تعالى فى القرآن الكريم:{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ

---

(1) آل عمران: (42 - 51).

كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ}[1] فتعالى الله الأحد الصمد عما يدعون{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[2]

حملت مريم بالمسيح عليهما السلام بمجرد نفخ الرّوح، وطبيعى أنها مرَّت بجميع أدوار الحمل إلى أن وضعت حملها وأتت بمولودها، والنّص القرآنى لم يذكر لنا شيئاً عن تلك الأدوار. يقول البيضاوى فى تفسيره: (وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل ستة، وقيل ثمانية، ولم يعش مولود وضع لثمانية غيره، وقيل ساعة). ولما أذن الله تعالى أن يكون وضع وميلاد، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة فى موضع فى مدينة "بيت لحم" من أعمال فلسطين. يقول البيضاوي: (إنَّ الزَّمن كان شتاء والنخلة يابسة، وإنّما كان مجيئها لتستتر أو لتعتمد عليها). أما ابن كثير فيقول: (ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات أجلهن ووضعهن، إذ لو كان خلاف لذكر)[3]

وعن النبى ρ قال: «**من شهد أن لا إله إلآ الله وحده لآ شريك له، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبده ورسوله، وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»[4].

إنَّ مدة الحمل التى ذكرنا من روايات المفسرين ليس لها سند من دليل قطعي، فالنّص القرآنى لم يتعرض له، كما لم يرد فى الحديث الشريف أى ذكر لذلك الحمل الشريف كيف تمَّ وكم كانت مدته، ولم يذكر لنا هل كان

---

(1) آل عمران: (59).
(2) الإخلاص: (1 - 4).
(3) ابن كثير، البداية والنهاية، جزء (2)، صفحة (65).
(4) رواه الشيخان.

حملاً عادياً كحمل بقية النساء أم غير ذلك، إذ اقتصر الإخبار بنفخ الروح والحمل والميلاد فقط. قال تعالى:

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ}(1)

{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}(2)

نعم يعلمنا الله تعالى فى محكم التنزيل بنفخ الروح، ثم يعرج ليقص لنا كيف تم الميلاد:{فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا}(3)

إنَّ الحمل المعهود يتم بتلقيح بويضة المرأة من نطفة الرجل، فتبدأ النطفة الأمشاج "الملقحة" فى النشاط والنمو فى أطوار معروفة، إذ تكون علقة فمضغة، ثم تكسى العظام باللحم بعد أن ينشز اللحم، إلى أن يستكمل الجنين أيامه المعهودة. (4)

ونعود إلى حمل مريم بعيسى عليهما السلام، فهل تمت مراحل هذا الحمل بعد نفخ الروح؟ أم هل تولد الجنين بعد نفخ الروح مختصراً المراحل المعهودة فأتى الوضع والميلاد بعد نفخ الروح مختصراً المراحل المعهودة فأتى الوضع والميلاد رأساً بعد نفخ الروح، فكان حملاً خفيفاً فى مدة مختصرة؟. إنَّ أياً من تلك الاحتمالات لم نجد له جواباً شافياً لها، بل لم يتعرض له النص القرآني. وبما أنّ الموضوع من متعلقات العقيدة، والعقيدة

---

(1) الأنبياء: (91).
(2) التحريم: (12).
(3) مريم: (22 - 23).
(4) وذلك ما سنتعرض له بالتفصيل فى " الباب الرابع " من هذا الكتاب، إن شاء الله.

لا تُأخذ إعتقاداً إلآ بالنص القطعى من قرآن أو حديث متواتر، **لـــــذا** فنقتصر فى ذلك على ما ورد به النص، وليس لنا الاجتهاد أو التخمين فى ذلك، والله تعالى أعلم.

يعلمنا النص القرآنى أنَّ مريم بعد أن حملت حملها انتبذت من أهلها مكاناً نائياَ قصياً بعيداَ عن الأنظار، لتواجه المخاض الذى ألجأها إلى جذع النخلة، لتضع حملها الطاهر، ولتواجه المجتمع والناس كافة بالآية المعجزة.

هذه هى قصة ميلاد رسول الله عيسى ابن مريم عليه السَلام، كما أتت فى محكم التنزيل، مكذبة كل الادعاءات والروايات المختلقة الملفقة، عبد الله ورسوله، بشر كباقى البشر، أتى بحمل وميلاد من أنثى حاضرة شاهدة معروفة، تعيش بينهم، تأكل مما يأكلون وتشرب مما يشربون، فهو ليس ابن الله ولا ثالث ثلاثة، إنسان بشر ليس إله ولا رب ولا أبن رب، ولا ملاك، استعرضناها فى بحثنا كصورة فريدة ومميزة من صورخلق وميلاد الإنسان.

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}(1)

إنّه عيسى ابن مريم الإنسان، عبد الله ورسوله. الشريف الطاهر المبارك، المرسل رحمة إلى بنى إسرائيل العصاة المكابرين، ليعيد الضالين منهم إلى عقيدة التوحيد، مصدقاً للتوراة كتاب الله المنزل على نبى الله موسى، ومرسلاً بكتاب الله "الإنجيل" المتضمن رسالته إليهم بشرائع وأحكام جديدة، بعضها مثبتاً لما أتت به التوراة، والبعض الآخر مبدلاً ومخالفاً لما أتت به التوراة، أتاهم بشواهد ومعجزات تدلل على رسالته، معجزة فى مولده، ومعجزة فى تكلمه فى مهده، ومعجزة إحياءه الموتى

---

(1) مريم: (34 - 34).

وشفاءه للمرضى، ومبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد.

إن عيسى عليه السلام الوليد الناطق فى المهد، عبد الله ورسوله، ليس ابـن الله ولـيس ربـاً ولا إلهـاً ولا ثالـث ثلاثـة، كمـا يلحـد إليـه المشـركون الكافرون... هذه هى حقيقته فى مولده وفى نشأته، لقد أنكر المولود كل تلك الاتهامات إذ تكلم فـى المهد علـى غير عـادة المواليد، خارقاً النواميس فـى مهده تماماً كما خرقها فى ميلاده.

{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}[1]

---

(1) مريم: (30 - 33).

5

ـ أصحاب الكهف والرقيم

قال تعالى:{**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**}(1)

إنَّ قصة الفتية الذين فروا بدينهم من بطش وجبروت الطغاة، هى قصة تتكرر كل يوم وفى كل مكان، وفى كل الأمم والشعوب والأقوام. (**إنَ** أصحاب المبادئ والمعتقدات الصحيحة فى كرب وشدّة وبلاء دائم، منذ أن خلقَ اللهُ الخلقَ إلى يومنا هذا، وذلك أنه ما من أمة أو شعب أو قوم إلآ ولهم عقائد يعتنقونها، وأفكار يحملونها، وأحكام ينظمون بها أمورهم، ارتضوا لأنفسهم هذه العقائد والأفكار والأحكام وألفوها على مرور الزمن، واستعدوا للدفاع عنها، وذلك أنها غدت جزءاً من حياتهم، وهذه سنة الله فى خلقه لم تتخلف فى الأمم والشعوب والأقوام، **لـــذا** فإنّه ما من نبى أو رسول جاء لقومه بعقائد وأفكار وأحكام جديدة مغايرة لما هم عليه إلا ورفضوه وما يدعوهم إليه، وكذبوه وآذوه، فنال كل نبى أو رسول من صنوف الأذى وألوان العذاب ما نجده فى كتاب الله تعالى:{**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ**}(2) وحيث أنَّ أتباع الأنبياء والرُّسُل يحملون الدعوات من بعدهم، فهم كذلك يتعرضون للأذى والتعذيب)(3) قال تعالى:{**وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ**

---

(1) الزمر: (42).
(2) الأنعام: (34).
(3) عويضة ـ محمود عبد اللطيف، حمل الدعوة ـ واجبات وصفات ـ، الصفحات (100 - 101)، بتصرف.

أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}[1] (ولما جاء فى الحديث الشريف عن خباب بن الأرت: «**... قال: كان الرجل قبلكم يُحفر له فى الأرض، ويجعل فيه فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق بإثنتين، وما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه...** » [2] فحامل المبدأ الصحيح مشعل هداية للناس من رسل وأنبياء أو من أتباعهم ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم، فإنه لا يهادن ولا ينافق، ولا يخضع لضغوط الامتحان والفتنة [3].

(وقد نال رسول الله ρ، ونال أصحابه من أذى قريش وقبائل العرب ماهو معروف ومشهور، لكنّ الأنبياء والرُّسُل وكذلك أتباعهم من بعدهم ما كانوا ليتركوا حمل الدّعوة وتليغ الشَّرائع والأحكام خضوعاً للعذاب والأذى، بل كانوا يصبرون ويصبرون على ما يلاقونه حتى يحكم الله بينهم وبين أقوامهم، وما عُرفَ أنّ نبياً أو رسولاً أو أتباع نبى أو رسول تركوا حمل الدّعوة وتخلوا عن حمل الأمانة خضوعاً للامتحان والتعذيب، فالصبر على العذاب والأذى سنة لا تتخلف فى كل من يحمل الدّعوة الحق من أنبياء ورسل واتباعٌ على مر العصور والدّهور). [4]

---

(1) البروج: (1 - 10).
(2) رواه البخارى وأحمد و النسائى و أبو داود.
(3) المصدر السابق، بتصرف.
(4) المصدر السابق، الصفحات (102 - 106)، بتصرف.

(إنَّ حمل الدّعوة يعنى بالتأكيد ضرب العقائد والأفكار والأحكام المألوفة لدى الناس، واستبدال عقائد وأفكار وأحكام أخرى بها، كما يعنى التعرض للأذى والعقاب والامتحان والفتنة، وما يجب حياله من التحلى بالصبر وتحمل المكاره، وانتظار الفرج من رب العالمين. فالبلاء والعذاب أمران لا بد من حصولهما أثناء حمل الدّعوة، كما أنّ الصبر والتحمل أمران لا بد من وجودهما لدى حامل الدّعوة، وعندما تعرض الرسول ρ للتعذيب من أهل الطائف توجه إلى ربه داعياً مبتهلاً، كما روى محمد بن كعب القرظي): (1)

«**اللهم إليك أشكوا ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين: أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى قريب يتهجمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل على غضبك..**» (2).

(إنّ الفتنة والامتحان التى يتعرض لها حملة الدّعوة كانت وتكررت وستكون وتتكرر، فما دام تعاقب الليل والنهار فسيكون هناك جلادون ومن يجلدون، وحامل الدّعوة يتحدى ولا بد الجلادين العُتاه، يتحدى المجتمع "وقادته والناس كافة" بعقائده وأفكاره ومفاهيمه وأحكامه وأعرافه وتقاليده، كما يتحدى الحكام والجلادين، ثابتاً على المبدأ، مسفهاً العقائد والأفكار والأحكام والمفاهيم والعادات والأعراف، صابراً على الأذى والعذاب والبلاء الذى سيتعرض له نتيجة ثباته على المبدأ. لذا فقد صنفه الرسول ρ

---

(1) عويضة - محمود عبد اللطيف، حمل الدعوة - واجبات وصفات -، الصفحات (102 - 106)، بتصرف.

(2) رواه ابن هشام فى السيرة، ورواه البغوى فى التفسير، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير عن طريق عبد الله بن جعفر.

فى صف واحد مع سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، مصداقاً لقولـه تعالى:{كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ}(1)

وحتـى يـتم أمـر الله تعـالى فـإنّ الأعـداء يفتحـون السـجون والمعتقلات، ويشهرون العصى والسياط، ويحاربون حملة الدعوة بقطع الأرزاق وحتى بقطع الأعناق، يعلنون الحرب على حملة الدعوة فى كل المجالات، ليحولوا بينهم وبين حمل الدعوة والثبات عليه والإستمرار فيه، فَمَنْ فتِنَ ومن ترك حمل الدعوة استجابة للضغوط فقد سقط، وحقق المفتون والساقط لأعداء الدعوة وأعداء الله ما يصبون إليه ويطمحون فيه.)(2)

(وكما ثبت رسول الله ρ على الدعوة وعلى حملها، فقد ثبت صحابته رضوان الله عليهم ثباتاً لا نظير لـه، والأمثلة على ذلك كثيرةً ومعروفة ومشهورة، وما قصة تعذيب بلال فى بطحاء مكة وثباته على الحق، وما قصة آل ياسر وتعذيبهم برمضاء مكة وصبرهم بخافية على أحد، وكتب السيرة تقص علينا قصص ثباتهم على حمل الدعوة، كما تقص علينا أساليب التعذيب التى استعملها طغاة مكة مع الرسول ρ ومع صحابته من بعده.)(3)

وكما ثبت الرسول ρ وصحابته على المبدأ فلم يهنوا ولم يضعفوا، فكان منهم بلال وآل ياسر وسمية وخبيب وغيرهم صابرين محتسبين، فقد ثبت قبلهم فتية الأخدود كما أعلمنا الله فى سورة البروج، الذين صبروا على العذاب وثبتوا على المبدأ حتى فاضت أرواحهم الطاهرة إلى بارئها مستبشرة بلقائه، وقد أعطانا الرسول ρ نماذج صادقة من الثبات على الحق، وهم أصحاب عيسى ابن مريم عليه وعليهم السلام الذين نشروا

---

(1) آل عمران: (185).
(2) المصدر السابق، صفحة (109)، بتصرف.
(3) المصدر السابق، صفحة (113)، بتصرف.

بالمناشير وحملوا على الخشب، فلم يهنوا ولم يُفتنوا، بل صبروا وثبتوا.

كما أن ممن ثبت على المبدأ أخوة لنا عذبوا حتى الموت فلو يهنوا ولم يضعفوا، لا بل صبروا وصمدوا محتسبين حتى فاضت أرواحهم الطاهرة الزكية إلى بارئها مستبشرة بلقائه، كما حصل مع العلامة "سيد قطب" ومن سبقه من قتلى الثبات على المبدأ الحق ومن لحقهم بعد ذلك من إخوانهم الذين استشهدوا على يد عبد الناصر وخلفائه من حكام مصر. وكما حصل مع قتيل الثبات على المبدأ الحق "عبد الغنى الملاح" الذى استشهد عام *1963* فى بغداد تحت تعذيب حكام البعث له. وكذلك "ناصر سريس وبديع حسن بدر" ورفاقهم من شهداء الثبات على المبدأ الذين قتلهم وسحلهم فى الشوارع طاغية ليبيا معمر القذافي. والمهندس "ماهر الشهبندر" ورفاقه من الشهداء الذين قتلهم طاغية العراق صدام حسين.. كل هؤلاء وغيرهم كثير ممن سبقهم ومن أتى بعدهم، لقوا ربهم وهم على عهدهم لم يتزعزع لهم إيمان، ولم تلن لهم قناة، ولم يحنوا هاماتهم للطغاة، لم يُفتنوا بل اختاروا الثبات على المبدأ والتحدى به. أليست كل نفس ذائقة الموت؟ أليس لكل أجل كتاب؟

كما أنّ إخواناً لنا كانوا ولا يزالوا متعرضين للفتنة والامتحان، يلاقون كل أصناف الفتن والعذاب فى سجون الطغاة فى أوزباكستان، وفى سجون رعاة البقر الأمريكان فى معتقلات غوانتنامو فى كوبا، وفى كل مكان، فمنهم من قضى نحبه شهيداً صابراً محتسباً، ومنهم من ينتظر ثابتاً على المبدأ متحدياً الطغاة. **وأخيراً** إخواننا الملتجئون للكهوف والمغر فى أفغانستان الصابرة، والحرب الصليبية الغاشمة التى تصب عليهم حمم الموت والعذاب والإبادة، صابرين محتسبين غير مفتونين متحدون أصحاب الفيل وحلفائهم من شرار الناس، لم يخضعوا ولم تلن لهم قناة. قال تعالى:{**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى**

نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}[1]

لقد التجأ نفر من الصحابة حملة المبدأ رضوان الله عليهم إلى الحبشة فراراً بدينهم وعقيدتهم، وهرباً من ظلم الطغاة وفتنتهم، وحديثا هرب فتية آمنوا بربهم من المسلمين إلى الكهوف فى أفغانستان هرباً من ظلم وجبروت الطغاة الصليبيين الكفرة وأحلافهم الشيطانية. وقصة الفتية الذين التجئوا للكهف هى قصة المؤمن صاحب العقيدة الذى فر بدينه وعقيدته من الطغاة ثابتاً على المبدأ، فاراً من الفتنة والظلم والطغيان، قال تعالى:{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلاَء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا}[2]

التجأ الفتية إلى الكهف ليضرب الله عليهم النعاس، فيستغرقون فى نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا.

{وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا}[3]

---

(1) الأحزاب: (23).
(2) الكهف: (13 - 16).
(3) الكهف: (17 - 18).

وهنا معجزة أخرى من معجزات الخلق، الدالة على قدرة الله الخالق، تلك المعجزة التى ساقها النص القرآنى لتخاطب العقول التائهة والباحثة عن الحقيقة على حد السواء، إذ فجأة تدب فيهم الحياة بعد ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً من النوم: (**وَكَذلِكَ بَعَثناهُمْ لِيَتَسائَلوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالوا لَبِثنا يَوْماً أوْ بَعْضَ يَوْمٍ فابْعَثوا أحَدَكُمْ بوَرِقِكُمْ هذِهِ إلى المَدينَةِ فليَنْظُرْ أيُها أزكى طَعاماً فليَأتِكُمْ برِزقٍ مِنْهُ وَيَتلطَفَ وَلا يُشْعِرَنَّ بكُمْ أحَداً ! إنَهُمْ إنْ يَظهَروا عَلَيْكُمْ يَرْجُموكُمْ أوْ يُعيدوكُمْ فى مِلَتِهِمْ وَلَنْ تفلِحوا إذاً أبَداً !**)[1]

إنّهُم لم يعرفوا كم لبثوا فى نومهم هذا فها هم يتناجون فيما بينهم حذرين خائفين على دينهم وعقيدتهم من فتنة وجبروت الطغاة الكفرة، لايدركون أنّ مئات الأعوام قد مرت، وأنَ أجيالاً قد تعاقبت، وأنّ مدينتهم التى شهدت طفولتهم وشبابهم والتى فارقوها ونزحوا عنها فراراً بدينهم وخوفاً من الإمتحان قد تغيرت معالمها، وأنّ الظلمة الطغاة المتسلطين قد دالت دولتهم، وأنّ خبرهم كفتية فروا بدينهم وعقيدتهم فى عهد الملك الظالم قد أصبحت تاريخاً يرويه الخلف عن السّلف، وأنّ الأقاويل والروايات قد تباينت حولهم وحول عقيدتهم، وحول الفترة التى مضت منذ هربهم وانقطاع أخبارهم..... ولنا أن نتصور ضخامة المفاجئة التى اعترت الفتية بعد تيقن زميلهم طول الزمن وبعده منذ فارقوا مدينتهم هرباً بدينهم، وتبدل أحوال الدنيا حولهم، حيث لم يعد فى مدينتهم شىء من الباطل الذى أنكروه وقاوموه وهجروا مدينتهم فراراً منه، وأنهم بالتالى من جيل مضت عليه السنين والقرون، وأنهم بالتالى أعجوبة فى نظر الناس، وآية من معجزات الله تعالى القائل:

(*1*) الكهف: (19 - 20).

{أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}[1]

والكهف: هو الغار الواسع فى الجبل. **أما الرَّقيم**: فقد قال أبن عباس: هى قرية خرجوا منها. وقال مجاهد: الرّقيم واد. وقال السّدي: الصخرة التى كانت على الكهف. وقال ابن زيد: كتاب. وقال آخرون: كتاب فى لوح من نحاس. وقال ابن عباس: بل من رصاص. ولابن عباس أيضاً: الرّقيم كتاب مرقوم عندهم فيه الشرع الذى تمسكوا به.

لقد اختلف المؤرخون فى مكان الكهف، فقال كثيرون بأرض أيلة، وقال آخرون: نينوى. وقيل فى البلقاء، وقيل فى بلاد الشام، وقيل فى بلاد الروم.

ويذهب "عطية زاهده" إلى أنّ الكهف هو فى خربة (قمران) بجانب البحر الميت إلى الشمال من الفشخة فى فلسطين، حيث يقول: (وعلى أيَة حال فإنَّ أحداً من الناس لم يسبق له أن أشار إلى علاقة أهل الكهف بمخطوطات البحر الميت، وكان مؤلف الكتاب هو من أول من بَيَّنَ أنَّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا فى قمران قرب البحر الميت، والوثائق الرّسمية التى فى حوزته، علاوة على على المصادر العلمية تثبت ذلك...)[2]

---

(1) الكهف: (9 - 13).
(2) زاهدة - عطية عبد المعطي، أصحاب الكهف والرّقيم، صفحة (1).

إنّ قصة أصحاب الكهف والرقيم هى آية أُخرى من آيات الله، آيات الخلق الشاهدة على قدرة الله تعالى، لذا رأيت أن يفرد لها هذا الجزء لرؤيتى علاقتها الأكيدة بالخلق وقدرة الله تعالى على الخلق والبعث، استئناساً بقوله تعالى:{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(1)

(1) يس: (78 - 83).

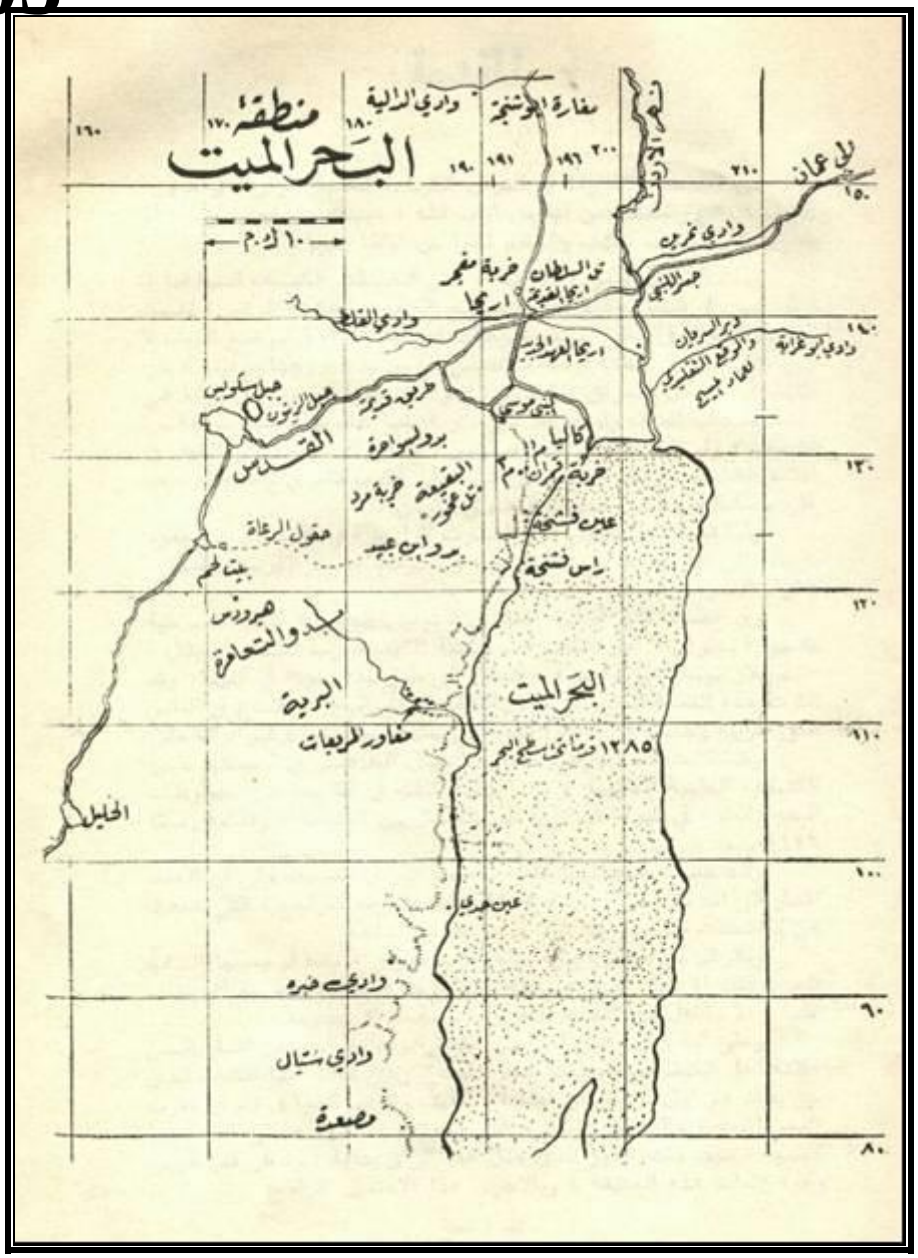

موقع خربة قمران حيث اكتشفت بها مخطوطات البحر الميت

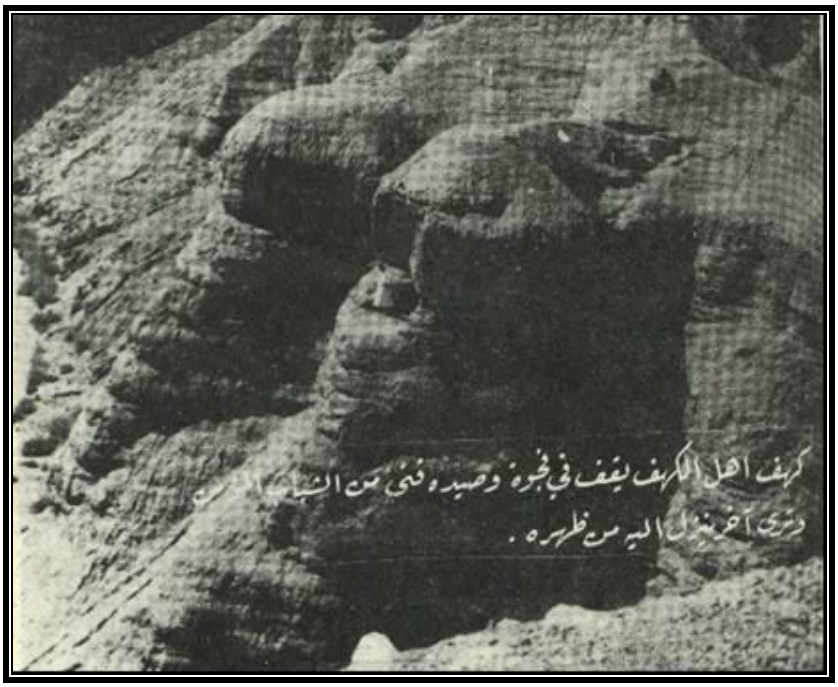

هل هذا الكهف الواقع فى خربة قمران قرب البحر الميت هو كهف أهل الكهف والرقيم؟

6- إعــادة الحيــاة

إنَّ الروح هى سِرُّ الحياة، كما أنَّ لها مظاهر وآثاراً تدل عليها، ومن مظاهر الروح: الفقه والعقل والاستماع والإبصار والحركة الإرادية، فلا توجد إلا بوجود الروح، فإذا نزعت الروح فقدت كل تلك الآثار والمظاهر وانعدمت الحياة، وفى النَّوم يتوفى الله الأنفس ويقبض الأرواح، لذلك فالنائم يفقد مظاهر الروح من الفهم والإدراك والإبصار والاستماع والحركة الإرادية، قال تعالى:{**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**}(1)

وحادثة "أصحاب الكهف والرَّقيم" هى من الشّواهد الدّالة على قدرته تعالى، حين أوقف حياة هؤلاء الفتية وقبض أرواحهم - إلى أجل مُسَمى - فأستغرقوا فى سّبات عميق لمدة قرون عدة، ثُمَّ أعاد إليهم الحياة ليكونوا آية دالة على عظمته وقدرته تعالى.

وليست تلك الحادثة هى فريدة نوعها، إذ يورد لنا النَّص القرآنى حادثة مشابهة جرى فيها إعادة الحياة، تلك الحادثة يسوقها النص القرآنى فى "سورة البقرة" فى معرض الحديث عن سرّ الحياة والموت والخلق والبعث، ومن ضمن الآيات العديدة التى يركز فيها القرآن على الجانب العقائدى لإنشاء التصورالصحيح لحقائق هذا الوجود، ليدرك المسلم حقائق عقيدته من خلال رؤية واعية عميقة ومستنيرة، تلك الرؤية القائمة على الأدلة والشواهد المؤدية إلى الجذم واليقين الثابت المطمئن، ليؤدى للتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطه بخالقه، ومن ثم إلى إدراك الإنسان لصلته بالله الخالق إدراكاً يقينياً ثابتاً، بحيث يوجد لدى الإنسان ايماناً أى

---

(1) الزمر: (42).

تصديقاً جاذماً مطابقاً لهذا الواقع الذى أحسه وأدركه عن دليل عقلى ثابت، يبعد عن الظّن والوهم والشك ونظريات الإحتمال. فإلى النّص القرآني:{**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}[1]

لم يعلمنا النّص القرآنى من هوالرجل المارعلى القرية، كما لم يعلمنا من تلك القرية الخاوية على عروشها، ولو شاء لأعلمنا، ولو كانت حكمة النّص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمل القرآن ذكره. والذى يعنينا من ذكر تلك القصة هو عظمة الحدث وجلاله، والعِبَر التى نستخلصها من الحدث، والدلائل التى يدل عليها، بغض النظر عن اسم الشخص الذى حدثت معه، وبغض النظر عن اسم القرية.

ولأنَّ النَص القرآنى لم يذكر الأسماء وتجاهلها، فقد اختُلِفَ فيها، إذ قال عكرمة وقتادة والربيع بن أنس والضحاك والسّدي: أنّ المار هو "عزير بن شرحيا". وقال وهب ابن منبه وآخرون: هو "أرمياء بن خلفياء"[2]. أمّا القرية التى مرّ عليها، فقال عكرمة ووهب وقتاده: هى "بيت المقدس". وقال الضحاك: هى "الأرض المقدسة". وقال السدي: هى "سلماباد". وقال الكلبي: هى "دير ساير". وقيل: هى "دير هرقل". وقيل: هى "قرية العنب"[3] على بعد فرسخين من بيت المقدس.

---

(1) البقرة: (259).
(2) قالوا أن " آرمياء بن خلفياء " هو الخضر عليه السلام.
(3) أى مدينة " الخليل " من أعمال فلسطين.

لقـد ذهـب أغلـب المـؤرخين إلــى أنّ المــار بالقريــة هــو "العزير"، واشتهرت القصة بينهم باسمه، وهى كما يرويها ابن كثير عن إسحق بن بشر بإسناده: [إنَّ عُزيراً كان عبدٌ صالحاً حكيماً فى بنى إسرائيل ممن تعلم التوراة وحفظها، خرج ذات يوم إلى ضيعة لـه يتعاهدها، فلما انصرف أتى إلى قرية خالية خاوية على عروشها حين قامت الظهيرة وأصابه الحر، فدخل القرية الخربة وهو على حماره، ونزل عن حماره ومعه سلّة تين وأخرى فيها عنب، فنزل فى ظلِّ تلك الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب الذى كان معه فى القصعة، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه فى القصعة ليبتل فى العصير ليأكله، ثم استلقى على قفاه، وأسند رجليه إلى الحائط، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهى قائمة على عروشها، وقد باد أهلها، ورأى عظاماً بالية نخرة، فقال: "أنى يحى هذه الله بعد موتها". والقول هنا ليس قول المتشكك المنكر للبعث والإحياء، بل هو قول ينطوى على التعجب. فبعث الله ملك الموت فقبض روحه، وأماته مائة عام.

فلما أتت عليه مائة عام، وكان فيما بين ذلك فى بنى إسرائيل أمور وأحداث. قال: فبعث الله إلى عزير ملكاً فخلق قلبه ليعقل، وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحى الله الموتى، ثم ركّب حَلقَهُ وهو ينظر، ثم كسى عظامه باللحم والشعر والجلد، ثم نفخ فيه الروح، كل ذلك وهو يرى ويعقل فاستوى جالساً. فقال لـه المَلَك: كم لبثتَ؟. قال: لبثتُ يوماً أو بعض يوم، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة، وبعث فى آخر النهار والشمس لم تغب، فقال أو بعض يوم ولم يتم لى يوم. فقال لـه المَلَك: بل لبثتَ مائة عام، فانظر إلى طعامك وشرابك، يعنى بالطعام الخبز اليابس، وشرابه العصير الذى اعتصره فى القصعة، فإذا بهما لم يتغير حالهما، فذلك قولـه تعالى **"لم يتسنه"** يعنى لم يتغير، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شىء

من حالهما. فكأنه أنكر فى نفسه فى قلبه فقال لـه المَلَكَ: أنكرت ما قلت لك؟ أُنظر إلى حمارك، فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة، فنادى المَلَكُ عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى رَكَبَّهُ المَلَكَ وعزير ينظر إليه، ثم ألبسها العروق والعصب، ثم كساها اللحم، ثم أنبت الجلد والشعر، ثم نفخ فيه الروح، فقام الحمار رافعاً رأسه وأُذنيه إلى السَّماء ناهقاً. فذلك قولـه تعالى:{**وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا**} يعني: وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً فى أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوراً بلا لحم، ثم انظر كيف نكسوها لحماً.{**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**} أى من إحياء الموتى. (1)

ولرب سائل يتساءل: هل هذا الرجل المار على تلك القرية الخربة المحطمة على قواعدها كان ملحد كافر بالخلق والبعث بعد موت فألقى جملته "أنى يحى هذه الله بعد موتها "إنكاراً وجحوداً؟. وعلى هذا التساؤل يجيب صاحب الظلال:

[إنَّ القائل ليعرف أنّ الله هناك، ولكن مشهد البلى والخواء ووقعه العنيف فى حسه يجعله يحار: كيف يحى هذه الله بعد موتها؟ وهذا أقصى ما يبلغه مشهد من العنف والعمق فى الإيحاء... وهكذا يلقى التعبير القرآنى ظلاله وإيحاءاته، فيرسم المشهد كأنّما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر. "أنى يحى الله هذه بعد موتها!! كيف تدبُّ الحياة فى هذا الموات؟ "فأماته الله مائة عام، ثُمَّ بعثه. لم يقل لـه كيف، إنَّما أراه فى عالم الواقع كيف!!! فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث

---

(1) ابن كثير، قصص القرآن، الصفحات (631 - 634). - ابن كثير، البداية والنهاية، مجلد (1)، الصفحات (43 - 46).

لا تُعالَجُ بالبرهان العقلي، وحتى بالمنطق الوجداني، ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذى يراه العيان... إنّما يكون بالتّجربة الشخصية الذاتية المباشرة، التى يمتلئ فيها الحس، ويطمئن بها القلب، دون كلام!..{**قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ**}. وما يُدريه كم لبثَ، والإحساس بالزمن لا يكون إلاّ مع الحياة والوعي؟ على أنَّ الحس الإنسانى ليس المقياس الوحيد للحقيقة، فهو يُخدَعُ وَيَضِل فيرى الزمن المديد قصيراً لملابسة طارئة، كما يرى اللحظة الصغيرة دهراً طويلاً لملابسة طارئة كذلك!:{**قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ**}.

وتبعاً لطبيعة التجربة، وكونها تجربة حسّية واقعية، نتصور أنَّهُ لا بُدَّ كانت هُناك آثار محسوسة تصور فعل مائة عام... وهذه الآثار المحسوسة لم تكن فى طعامه وشرابه، فلم يكونا آسنين متعفنين:{**فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ**} وإذاً فلا بد أنّ هذه الآثار المحسوسة كانت ممثلة فى شخصه أو فى حماره:{**وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا**}... أية عظام؟ عظامه هوَ؟. لو كان الأمر كذلك - كما يقول بعض المفسّرين أنّ عظامه هى التى تعرت من اللحم - للفتَ هذا نظره عندما استيقظ، ووخز حسه كذلك، وَلمَا كانت إجابته:"**لَبِثتُ يوماً أو بعض يوم**".

لذلك نُرَجِحُ أنَّ الحمار هو الذى تعَرَّت عظامه وتفسّخت، ثمَّ كانت الآية هى ضَمُ هذه العظام بعضها إلى بعض وكُسْوَتها باللحم وردها إلى الحَياة، على مرأى من صاحبه الذى لم يمسه البلى، ولم يصب طعامه ولا شرابه العفن، ليكون هذا التباين فى المصائر والجميع فى مكان واحد، مُعَرَّضونَ لِمُؤثرات جوية وبيئية واحده، آية أُخرى على القدرة التى لا يُعْجِزها شىء، والتى تتصرف مطلقة من كل قيد، وليدرك الرجل كيف يحى هذه الله بعد

موتها!!!][1]

نعـــم، إنَّ ظلال النَّص القرآنى توحى إلينا بخطأ ما ذهب إليه إبن كثير وغيره من رواية "بشر بن إسحق" السابقة من تعرى عظام صاحب العظام وإعادة كسوتها باللحم، فالآية كانت فيه{**وَلِنَجْعَلَكَ آيَـةً لِّلنَّـاسِ**}، وذلك يعنـى أنه لم تُبلى عظامه فى حين بليت عظام حماره.

كانت تلك قصّة من القصص العديدة، التى أتى بها القرآن الكريم لِلَفت إنتبـاه الإنسـان إلـى قدرة الله المطلقـة فـى الخلـق والإنشـاء والإماتـة وإعـادة البَعْث، لتكون برهاناً آخر يُضاف إلى البراهين العديدة فى طريق الإيمـان، وهكذا قـالَ الرَّجُل الـذى مرّت بـه التجربـة شخصـياً ولـم تُنْقَلُ إليـه نقلاً أو روايَـةً، بـل شـاهدها بعينيـه وأحسـها ولمسـها بنفسـه:{**أَعْلَـمُ أَنَّ اللهَ عَلَـى كُـلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**}... قدير على الخلق من عَدَم... وقدير على قبض الروح ونـزع الحياة متى شاء... وقدير على إعادة الحياة وبعث الإنسان من جديد.

---

(1) قطب - سيد قطب، فى ظلال القرآن، مجلد (1)، جزء (3)، الصفحات (229 - 300).